مجلة المعجمية - تونس

ع 24

2008

مَظاهِر من سُلوك المصْطلَح
في النّصّ العِلْميّ العَرَبيّ القَديم

الحبيب النّصراوي

1 – تمهيد :

يتّصل التّطور العلميّ والتّقنيّ بحاجات لغويّة متجدّدة ومجالات فكريّة ومعرفيّة أكثر تعقيدًا وتشعُّبًا، يرتبط فيها النّشاط المصطلحيّ بالنّشاط العلميّ والتّقنيّ، وقد يكون ذلك سابقًا لأيّ تصوّر نظريّ أو منهجيّ ينظّم هذا النشاط العضويّ المتكامل، وما يُطرح في تكوين العلوم عادة من مشاكل في تكوين الخطاب العلميّ بين ميدان المعرفة ونظام اللُّغة (1). ولهذا يبدو البحث في المصطلحيّة محاولة لربط هذا العلم بإطاره المعجميّ العام سواء في مستوى توليد المصطلحات أو في مستوى استعمالها الفعليّ.

من هنا يأتي استقصاء الجهد المصطلحيّ للقدامى لإعادة بناء تصوّر منهجيّ كثيرا ما استعاضوا فيه بالتّطبيق عن التّنظير. فإنّ ما تحظى به مفردات اللُّغة العامة من درس باعتبارها منتمية إلى المعجم العام، لا ينبغي أنْ يحجب عنّا اشتراكها مع المصطلح في الخصائص العامّة كالتّأليف الصوتيّ والبنية الصرفيّة والدّلالة والانتماء المقوليّ، والتفرّد والتولّد، ليتأكّد انتماؤهما إلى المعجم بفرعيه : العام بالنسبة إلى المفردات العامّة، والمختصّ بالنسبة إلى المصطلحات، ولجعل البحث في ظهور المصطلح ونموّه في الخطاب شبيها بمفردات اللُّغة

(1) عثمان بن طالب : علم المصطلح بين المعجميّة وعلم الدّلالة، ص ص 69 – 103.

العامّة، مع تميّز المصطلح بذاتيّة الدّلالة، وأحاديّتها، وخصوصيّتها، إضافة إلى الانتماء إلى حقل مفهوميّ قابل للضّبط والتّحديد، وقابليّة التّعريف المنطقيّ (2).

وإذا كان المصطلح يعرف بأنّه أحاديُّ الدّلالة، فهل يحافظ على صرامته تلك — عند معالجته من خلال نسيجه اللغوي داخل النّصّ — أم يتأثّر بألفاظ اللّغة العامّة، فيتّصل بمعان إضافية حادثة فيه بسبب تأرجحه بين الحقيقة والمجاز بحسب علاقته ببقيّة مكوّنات النصّ اللُّغوية ؟

أمّا النّصّ العلميّ فهو نصّ لغوي تكوّنه من ناحية ألفاظُ اللُّغة العامّة بمختلف مقولاتها (الاسم والصفة والفعل والظرف والأداة) ؛ ومن ناحية ثانية المصطلحاتُ المخصّصة لذلك المجال العلميّ المدروس، وهي قائمة على مقوليّ الاسم والصفة فحسب (3). لكن إذا كان من شروط المصطلح أنْ يكون حاملاً لدلالة مفهوميّة واحدة تجعله غير قابل للدخول في علاقات دلاليّة كالتّرادف والاشتراك وغير ذلك ممّا تختصّ به دلالة ألفاظ اللُّغة العامّة، فإنّ وروده في النّصّ يمكن أن يغيّر من هذا السلوك ويخلق من حول المصطلح مجالا دلاليًّا وشكليًّا قد يؤثّر في بنيته ودلالته.

هذا ما سنحاول البحث فيه بتتبّع ظاهرة مهمّة في المعجميّة عامّة والمصطلحيّة خاصة، تتمثّل في منهجيّة استخدام المصطلح داخل النصّ العلميّ والتّقنيّ، والبحث في ما يثيره هذا الاستعمال من قضايا معجميّة عامة ومصطلحيّة.

لكنّ بحثنا في هذه المسألة يجاوز بنا منهج إسناد المصطلح إلى النّظر في حركته داخل سياقه النّصّيّ واللُّغويّ لمعالجة وظيفته في النّصّ والوقوف على كيفيّة توظيفه في النّصوص العلميّة والفنيّة، من خلال ربطه بمختلف تمظهراته الاشتقاقيّة الصرفيّة والدلاليّة، حتى نصل عملنا بنوع من الاستقراء القائم على مباشرة النّصوص العلميّة واستخراج الظواهر المعجميّة منها بعيدا عن التّخمين والتوقّع.

---

(2) ينظر حول هذه المقاربة المعجميّة لعلم المصطلح بحث إبراهيم بن مراد "المصطلحيّة وعلم المعجم" في كتابه : مسائل في المعجم، ص ص 30 – 44 ؛ نفسه : مقدّمة لنظريّة المعجم ص ص 134 – 163 (الفصل الخامس : التولّد في المعجم).

(3) إبراهيم بن مراد : مسائل في المعجم ، ص 139.

وسننطلق في ذلك من مصدر يمكن اعتباره تأسيسيًا في نشأة العلوم الطبية والصيدلية وتأصيل مصطلحاتهما عند العرب. وهو كتاب "المنصوري في الطبّ" لأبي بكر الرازي المتوفّى سنة 313 هـ/925 م (4). وهو كتاب قسّمه الرازي إلى عشر مقالات، سنهتمّ منها بالمقالة الثالثة، وهي "في تعرّف قوى الأغذية والأدوية"، وتضمّ "مسرّدًا" في مصطلحات صيدليّة مختلفة، مصحوبة بنصوص وصفيّة وتحليليّة رأينا أنّها تمثّل مادة مناسبة لدرس ظاهرة المجاز في المؤلفات الطبيّة والصيدليّة العربيّة في القديم.

وفي هذا الإطار لا يمكن تجاهل وجوه العلاقة بين الحقيقة والمجاز بناء على علاقة الحسيّ بالمجرّد أو الخاصّ بالعامّ. وأيسر السبل إلى ذلك التّجريد اللُّغويّ، لأنّه يسعى إلى أقلمة مفردات اللُّغة الحسّية مع تطوّر العقل الإنساني، فينقل المعاني الحسيّة إلى دلالات مجرّدة.

على أنّ اهتمامنا بدلالة المصطلحات بما هي أفراد، يحصر بحثنا في إطار معجميّ خالص تُعتبر فيه هذه الوحداتُ المخصَّصة أفرادا لغويّة، ذات معان مجازيّة (sens figurés) حاصلة من تحويل المعاني الحقيقيّة العامّة (sens propres) تحويلاً مجازيًّا بعيدا عن المجاز البلاغيّ وصلاته بالبنى النّحويّة والدّلالة المنطقيّة. فليس المقصود من هذه المعالجة الأبعاد الفنية، بل ما دعت إليه ضرورات الاصطلاح في العلوم والفنون.

وفي القديم ضُمّت أغلبُ هذه الاستعمالات المجازيّة إلى رصيد اللُّغة المعجميّ، ولم نعد نشعر إجمالا بأنّها مجازية. (سنلاحظ ذلك في البحث في الدلالة المعجميّة : ففيها خلط بين الحقيقة والمجاز) هذا ما دفع الدراسات اللُّغويّة الحديثة إلى الاتّجاه إلى المجاز بوصفه أساس التّطوّر الدلاليّ.

لذلك تُنزّل الدّراسةُ المعجميّة التحوّلَ المجازيَّ بالضرورة ضمن حركة التّوليد اللُّغويّ، بما أنّ المجاز يدخل مدلولات جديدة في معجم لغة ما في زمن محدّد. وهذا يؤدّي إلى تشابه وظيفة المجاز والإبداع، لأنّ شرط وجودهما واحد، وهو الحاجة، فإنْ أمكن سدّها

(4) كتابُ المنصوري في الطبّ، لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي، تحقيق : حازم البكري الصديقي، منشورات المنظمة العربية للتربية والثّقافة والعلوم، الكويت، 1987.

بوسائل التوليد الداخلية عدّ إبداعًا، وإنْ ألجأت الضرورة إلى تسمية المفهوم أو البضاعة من خارج اللُّغة عدّ اقتراضًا. من هذه الزاوية يبدو المجاز ذا مكانة أساسيّة في تحوير التّوازن الوقتيّ للمعجم. إنّه عامل أساسيّ من عوامل تطوّر اللُّغات.

وقد استطاع القدامى أنْ يسندوا من خلاله المعاني الجديدة إلى الألفاظ القديمة في الاستعمال. فإنّ تجدّد النشاط الإنسانيّ لا تبرزه اللُّغة دائمًا في شكل ألفاظ جديدة، بلْ إنّه يتمثّل كذلك في قدرة اللُّغة على إنجاز انزياحات دلاليّة بتحويل دوالها عن مدلولاتها العامّة المتواضع عليها إلى مدلولات جديدة.

وأهميّة المجاز تكمن في كونه من أهمّ وسائل التّوليد المصطلحي لأنّه يمثل انتقالا ضمن النّظام اللّغويّ الواحد، بخلاف التوليد الشكليّ الذي يتطلب إحداث دوالّ جديدة، ولهذا كان المجاز أيسر لقيامه في الغالب على الانتقال من الحقيقة إلى المجاز في مستوى تسمية المفاهيم أو المستحدثات العلمية أو التقنية المحدّدة.

على أنّ لطبيعة المولدات المجازية التي نريد أن نعالج في بحثنا خصوصيّة، وهي أنّها مصطلحات، أو وحدات ذات معان اصطلاحية، أصبحت جزءا من الخطاب العلمي في اللغة العربية العلمية، فإذا كانت المصطلحات السائدة في علميْ الطبّ والصيدلة أعجميةً، وإذا كانت العربية تشكو في هذا المجال من الخانات المعجمية الفارغة، فإنّ المجاز يصبح الوسيلة المُجدية لحلّ مسألة نقل المصطلحات العلمية إلى العربية.

وهنا يمكن أن تمثل معالجة هذه المصطلحات في لغة العلوم عند العرب دليلا مهمّا لدرس وظيفة المجاز في توسيع المصطلحية العلمية العربية وإثراء معجمها.

2 – دِرَاسَةُ نَمَاذِجَ مِن المُصْطَلَحَات :

2 – 1. المصطلحات المدروسة : (الملطّف، الغليظ، البارد، الحارّ، اليابس، الرّطب) :

ليس اعتماد هذه المصطلحات من باب الصدفة، بل هي نتيجة اختيار متعمّد، فإنّ هذه المصطلحات عربيّة مولّدة مجازًا، وهذا معناه أنّ أصولها الغربيّة وطبيعة اشتقاقها تسمح بظهور مرادفات لها أو مقابلات أو اشتقاقات بيسر، وهو ما لا تسمح به مصطلحات

أخرى كالمولّدة بالاقتراض مثلا وهي كثيرة. وبما أنّ لكلّ مجاز حقيقة فسنحاول الوقوف على حقيقة هذه المفردات اللغوية العامة في المعجم اللغوي العام قبل أن تتحوّل إلى مصطلحات حاملة لمفاهيم خاصة بمجال علميّ معيّن هو مجال الطبّ.

نسعى من خلال نماذج من المصطلحات العلمية إلى معالجة المصطلح من جهة كيفية اندراجه وتصرّفه وإعادة صياغته وتمظهره داخل النصّ العلمي، أيْ النّظر إلى المصطلح لا باعتباره وحدة معزولة في قائمة بل باعتباره جزءا حيويّا داخل اللُّغة العامّة. وتكشف المعالجة أنّ المصطلح لا يزال في مرحلة التثبيت وهو في أواخر القرن الثالث وبداية الرابع الهجريّ. وهذا ليس غريبا فنحن نعرف أنّ وضع هذه المصطلحات ومن ثمّ استعمالها في النصوص العلميّة كان عملاً شخصيًّا تطبيقيًّا احتيج إليه عند التّأليف، دون أن يُسبق بعمل نظريّ معجميّ يمهّد القواعد لوضع المصطلحات وفق أسس منهجيّة وتصوّر نظريّ متكامل.

ودليلنا على ذلك أنّ الرازي لم يسجّل في كتابه موقفا نظريّا من مسألة المصطلحات سواء من ناحية المستويات اللُّغويّة، أو طرائق تصرّفها في النّصّ العلميّ، وما قد ينتج عن ذلك من قضايا دلاليّة وبنيويّة في مجهوده المصطلحيّ. وهو ما يوحي ربّما ببداهة المسألة عنده بما أنّ اهتمامه كان منصبًا على التّطبيق لا التّنظير. فهل يمكن أنْ نتبيّن موقفه في المستوى الإجرائي أي في ما ولّد من مصطلحات ؟

هذا ما دفعنا إلى استخراج عدد من المصطلحات والنّظر فيها من خلال سياقها النّصيّ عند الرازي، وذلك بسبب صعوبة وصف الظواهر المتّصلة بسلوك المصطلح من خارج سياقها العام. وهذه المصطلحات التي اخترنا تلتقي في كون الرازي اتّخذها صفات للأغذية، وأسندها مجازا واصطلاحا إلى طبائع الأغذية وقوى الأدوية ؛ وهي في الحقيقة وحدات من مفردات اللغة العامة تطلق في الواقع على طبائع الكائنات الحية كالإنسان والحيوان والنبات وعناصر الطبيعة.

وتقوم معالجتنا لسلوك هذه المصطلحات على درس عدد من الأركان من خلال مظاهر ورودها الفعلي في النّص، وهي :

- التعريف،
- وما يقتضيه التوسّع في شرحه من تحليل،
- وما يتفرّع إليه المصطلح من اشتقاقات،
- ومدى مراوحة الدّلالة بين الحقيقيّة والمجاز، أو بين الدّلالة الاصطلاحيّة والدّلالة العامّة.

على أن نعتبر "الحقيقة" : هي الدلالة المعجميّة العامّة (اعتمادًا على لسان العرب والمعجم الوسيط)، ونعتبر "المجاز" : هو الدّلالة الاصطلاحيّة التي اتّخذت لها حيّزا في النصّ العلميّ المختصّ، (اعتمادًا على كتاب المنصوري للرازي)، ومن ثمّ تتبع درجات الانزياح بين الاستعمال العام والاستعمال المخصّص. وهو ما نوجزه في هذا الجدول :

المصطلح/ مشتقاته	الدلالة المعجميّة العامة	المفهوم الاصطلاحي	1 - التعريف	2- التحليل (أ-خصائص / ب- تنبيهات)	3 - التمثيل
1 - الملطّف: لطيف يلطّف ألطف التلطيف	صفة الفاعل: لما يحوّل الخشن رفيقا رقيقا ناعما صفة مشبهة: "دم لطيف" فعل: "جنس آخر يلطّف" صفة التفضيل: "صار الكلّ أرقّ وألطف"	- الغذاء المولّد دما مائيا خفيفا. - الغذاء المخفف لبقايا الغذاء الغليظ - الغذاء المزيل للمترسّبات الغليظة من الجسم.	- .."منها (الأغذية) ما يتولّد منها دم لطيف فيقال لها ملطّفة". ص 111. - "... ومن الأغذية الملطّفة جنس آخر يلطّف ما بقي من الشيء الغليظ". ص 111. - "..ومن	أ-"لأنّ الدم المتولّد منها إذا خالط الدم الذي في البدن صار الكلّ أرقّ وألطف ممّا كان " ص111؛ ب-"وهذا جنس من الطعام نافع لمن ليست له حركة .. و لم يأمن أن يتولد في بدنه كيموس غليظ أو يتولد	-"كلباب جسم الحنطة المغسول.. وما لان لحمه من صغار السمك ولم يكن فيه لزوجة، والقرع وما أشبه ذلك " ص111 . -"كالبصل والجزر والشلجم والفجل وما أشبه ذلك"ص 112.

اللطافة	مصدر: ".. بتقويته للأعضاء وترطيبه وتلطيفه لما فيها". -اسم : ".. فأجود الأغذية له المتوسطة فيما بين اللطافة والغلظ" ص 114 .		الأغذية الملطّفة جنس آخر ثالث يكون الذي يتولّد منه لطيفا ويلطّف ما يلقاه في البدن من الكيموس الغليظ اللزج"، ص112	في كبده أو طحاله سُدد.. أو يكون في بعض مفاصله علة من البلغم". ص111.	-"كماء الشعير والبطيخ"، ص 112. "كالخردل والحرّف والثوم والكراث والكرفس"، ص 113.
2- الغليظ: غلُظَ: غِلَظٌ: تغلّظ: أغْلظُ:	- صفة مشبهة لما اشتدّ وخشن واكتمل، والغليظ : الصعب، الشديد. -فعل: "فأجْود الأطعمة له ما غَلظَ -اسم: "ويُسلم من غِلَظ جرمها" -مصدر: " تولد سددا وتغلّظ الطحال".. -صفة التفضيل: " كان أرحم وأغلظ وأكثر إغذاء.."	-الأطعمة الشديدة التغذية. -البطيء الهضم والانحدار: -الفاسد الراكد -الكثيف الأجرام:	-"..والأطعمة الغليظة إذا صادفت بدنا حارا .. انهضمت، وغذّت البدن غذاء كثيرا باقيا وقوته بقوة كثيرة .. " ص 113. -"من كان الطعام يفسد في معدته، فأجود الأطعمة له ما غلظ وتصلّب وأبطأ في استحالته" ص 121. -"والمياه	أ-"والأطعمة الغليظة إذا صادفت بدنا حارا كثير التعب قليل الطعام كثير النوم بعد الطعام، انهضمت وغذّت البدن غذاء كثيرا باقيا وقوته بقوة كثيرة.." ص 113. ب-" وأجود ما تستعمل هذه الأغذية في الشتاء لاجتماع	-"الترمس : غليظ عسر الهضم، وإذا طُيّب ثم أُكل لم يُسخن.." ص 124. -"أما لحوم الخرفان والضان فكلها رطب لزج. ولحم فراخ الحمام والعصافير يولد دما أسخن وأغلظ من الدم المعتدل.." ص 114.

		-اللاذع الحاد -التصلّب المرضي:	الحارة.. تحلل القولنج وتفشّ الرياح الغليظة المشتبكة في الأعضاء 129. -"وبقي جرمه غليظا رديئا" 113. -"ما بقي من الشيء الغليظ مما فيه من الحدّة والحرافة".. 129. -"والتين إن أكل وحده زاد غلظ الكبد والطحال" 120.	الحرارة في باطن البدن وطول النوم .." ص 113.	
3- البارد: يبرّد: مبرّد: البرد:	- صفة مشبهة لما هبطت حرارته فهو بارد، -فعل : "العدس بارد يطفئ ويبرّد.." -صفة المفعول: "الماء المبرّد بالثلج" -اسم: "والذي له من ذاته مثل	- الغذاء الذي لا يزيد في حرارة البدن - الأمراض المختبئة ، غير الناشطة	-"الأغذية الباردة يحتاج إليها من كان حارّ البدن وفي الأوقات والبلدان الحارة .. ص 116. -"الكافور بارد لطيف.. وإن شرب برّد	أ-".. فما كان منها عفصا فهو بارد غليظ، وما كان حامضا فهو بارد لطيف" .. ص 116. ب-". وما كان من الشراب أبيض عفصا فهو أقلّ	- ".. وهي الشعير والقرع والبطيخ والإجاص.. والخيار وما إلى الحموضة والعفوصة من العنب والزبيب" .. ص 116.

البرودة: التبريد: مبرّد:	هذا البرد".. "اللبن مائل إلى البرودة والرطوبة". -مصدر: "سويق الشعير أكثر تبريدا". -صفة الفاعل: "الشعير منفخ مبرّد"		الكلى وجمّد المني وحلب أمراضا باردة.." ص 158.	الأشربة حرارة، فإن كان ذلك غليظا حديثا فهو بارد" ص 116.	
4 - الحارّ: تحمي: حرارة: إسخان: تسخّن: أسخن:	صفة مشبهة لما: سخن، وعطش ويبس أو حزن، -فعل مرادف: "تسخن العصب وتحمي . -اسم: "لحم الجزور شديد الحرارة " -مصدر بديل: "وأقلّه إسخانا هو الأبيض" ص 130. - "فعل بديل: اللوبياء تسخّن البدن". ص 124. صفة تفضيل مرادفة: "لحم الجداء أسخن." 133.	-المسخّن -المنشّط -الحاد المذاق	-"الأغذية الحارة يحتاج إليها من كان عليه البرد في الأوقات الباردة" ص 116. -وأسخن الأشربة الحارّ العتيق الأصفر" ص 116. - "حارّ حرّيف مقطّع كالخردل " ص 117.	أ-"وكلّ شراب مسكر فإنّه يسخّن البدن، وأقلّه إسخانا هو الأبيض" ص 130. ب-"والشراب يسخّن المعدة والكبد ويزيد في الدم واللحم والحرارة الغريزية.. فيجوّد لذلك الهضم كلّه.." ص 130.	-"منها الحنطة المطبوخة والخبز المتّخذ من الحنطة والحمص والحلبة والتمر والعنب الحلو والكرفس والفجل " ص 116.

5 –	– صفة مشبهة: لما جفّ بعد رطوبة، فهو يابس: صلب.	– المزيلة لرطوبة البدن ..	–"والأغذية اليابسة: يحتاج إليها من كان الغالب على بدنه الرطوبة، وفي الأوقات الرطبة والبلدان الرطبة .." ص 116.	أ–كلّ ما يشوى وكلّ ما يطجّن وكلّ ما يقلى .." ص 116.	–".. وهي كالعدس والكرنب والسويق الجاف، وكلّ ما يشوى وكلّ ما يطجّن، وكل ما يقلى.. والخلّ والخردل والمريّ واللحوم المسنة من جميع الحيوان .. "ص 113.
اليابس:		– ما خلا من الرطوبة			
اليبس:	– اسم : "الباذنجان حارّ شديد اليبس، يولّد السوداء .." ص 146.	– الصلب		ب–"وإن كان يابس القوام جفّف".. ص 111.	
تيبّس:	–الفعل: "تمسك البطن وتيبّسها".	– الأغذية القابضة للبطن	–"الرياح التي تهبّ من ناحية القطب الشمالي .. باردة يابسة" ص 162.		
		– الجافّ	–"والتين رطبه ويابسه ينقي ويجلو الكلى.." ص 119.		
			–الأرز وسويق الشعير.. تمسك البطن وتيبّسها.. 122.		
			–"الحليب نافع من السعال اليابس وحرقة البول.. يغذو الأبدان اليابسة .." ص		

			.141		
6 – الرّطب:	–صفة مشبهة لما رطِب رطوبة : ندي وابتلّ، ورطُب : نعُم، ولان	– النّديّة	–"الأغذية الرطبة يحتاج إليها من قد أفرط عليه اليبس، وفي الأوقات والبلدان اليابسة" .. ص 117.	أ–"وكلّ ما يطبخ بالماء ويسلق .." ص 117.	–"ومنها ماء الشعير والقرع والقثاء والبطيخ ... والحمص الرطب واللوبيا الرطب" ص 117.
رطوبة:	– اسم : "الماء يحفظ للبدن رطوبته الأصلية .." 127.	– الغضّ	–"والتين رطبه ويابسه ينقي ويجلو الكلى.." ص 119.	ب–"كلما كان الحيوان أطرى فلحمه أرطب وهو خير، وكلما كان أسنّ فلحمه أيبس وهو شرّ .." ص 133.	–"والتين رطبه ويابسه ينقي ويجلو الكلى.." ص 119.
رطوبات:	– جمع : "جيّد للمعدة التي فيها رطوبات" 149.	– الليّن الطريّ	–"الماء يحفظ للبدن رطوبته الأصلية.." ص 127؛ "كلما كان الحيوان أطرى فلحمه أرطب". ص 117.		
أرطب:	–صفة مبالغة : "كلما كان الحيوان أطرى فلحمه أرطب." ص 133.				

2 – 2 . المصطلح والاشتقاق :

لا شكّ أنّ معالجة سلوك المصطلح في السياق يمكّن من تحديد مختلف مظهراته ودلالاتها. وهنا تظهر خصيصتا المصطلح : الأولى باعتباره قيمة، والثانية باعتباره معنى وتتحدّد القيمة بموقع المصطلح من النظام المفهومي الذي يندرج فيه، فإنّ تحوّل اللفظ من وحدة عامة إلى وحدة مخصّصة (مصطلح) يُحدث تغيّرا في قيمته المعنوية حتى وإن حافظ

على بنيته الدالية ؛ أما دلالته فترجع إلى طبيعة العلاقة المرجعية الجديدة التي تحدّد للوحدة المصطلحية مفهوما خاصا لا يقبل الاشتراك أو الغموض. وعادة ما تتأسس هذه الدلالة بالمجاز، وأحيانا بالاشتقاق أو بالنحت.

على أنّ ظهورَ هذه المصطلحات في شكل أفراد لغويّة يدلّ على أنّها مولّدة مجازا أو بانزياح دلاليّ لتنتقل من وحدة عامة إلى مصطلح، ولكنّ ذلك قد يؤدي إلى الاشتراك. بينما يحدّ ظهورها في شكل مركّب اسميّ من الاشتراك، لأنّ مدلول المصطلح المركّب لا ينبني على المعنى الحرفي أو المعجميّ لمكوناته. والمصطلحات التي نتناول ترد أفرادا في الغالب وقد ترد مركبات اسمية. وهي إن وردت مفردة جاءت في شكل صفات اكتسبت خاصية الاسمية بواسطة نقل مقوليّ من الوصفية إلى الاسمية (التمر الرّطب/الرّطب، الأغذية الملطفة/الملطفة..).

ويبدو أنّ المصطلحات الستة (الملطّف، والغليظ، والبارد، والحارّ، واليابس، والرّطب) تثير في النّصّ جملة من العلاقات الصرفية الاشتقاقية الناجمة عن دخول المصطلح في نسيج نصّ يقوم على الوصف حينا وعلى التحليل والتمثيل حينا آخر، وهو ما يُحْوِج الكاتبَ إلى استخدامه في سياقات تؤثّر في بنيته ودلالته. ويثير ذلك تساؤلا عن صلة هذه المشتقات بالمفاهيم الاصطلاحية للمصطلحات الأصلية المدروسة، ومدى تداخل دلالاتها الاصطلاحية مع دلالاتها العامة.

فقد لاحظنا أنّ المصطلح يُستعمل في مستويين ، الأول : باعتباره مدخلاً ذا مفهوم يُعرَّف ويُشرح ويمثّل له، باعتباره مكوّنا من مكونات الرصيد المصطلحي لهذا العلم ؛ والثاني: باعتباره أداةً لشرح مصطلح آخر. فنجد هذه المراوحة مثلا بين (اليابس/الرطب)، و(الحار/البارد)، و(الملطف/الغليظ). وهذه الثنائيات الاشتقاقية تتبادل فيما بينها وظيفتي المدخل والتعريف. ويستدعي وجودها الاستفسار عن اختيارها : فلماذا تقابل : الغليظ الملطف وليس اللطيف ؟ وإذا قلنا إنّ الرازي خيّر صيغة (مُفعّل) للدّلالة على التأثير في غيرها بما أنّها أغذية أو أدوية لها فاعلية ، فلماذا لم يستعمل حينئذ (مغلّظ) بدل (غليظ) التي

تفيد صفة الشيء لا فاعليته في غيره ؟ ونفس الشيء يقال عن (بارد وحارّ ويابس ورطب) لتصبح (مبرّد ومحرّر وميبّس ومرطّب).

على أنّ انتقال هذه المصطلحات من شكلها الأصليّ إلى أشكال اشتقاقيّة متعدّدة يوحي بنوع من المرور المتبادل بين التّعميم والتّخصيص. فقد ظهرت صيغ مختلفة اقتضاها سياق النّصّ، حتى لا تكاد تتمايز عن الاستعمال اللُّغويّ العام. فهل لهذه الصيغة أثر دلاليّ يراوح بين التعميم والتخصيص ؟ أم تظلّ جميعا حاملة لنفس المفهوم الاصطلاحيّ للمصطلح المركزيّ فلا تتغيّر بتغيّر اشتقاقاتها في النّصّ ؟

1 – الاسم : (اللطافة، الغلظ، البرودة، البرد، الحرارة + مرادفه : اليبس، الرطوبة) :

إنّ استخدام المصطلح في صيغة اسم يدلّ على أنّه قد اكتسب سمة المفهوم القارّ في الاستعمال الاصطلاحي باعتباره حالة متّفقا عليها يمكن الوصول إليها باعتماد الأغذية أو الأدوية المشار إليها.

2 – الصفة المشبهة (اللطيف، الغليظ، البارد، الحارّ، اليابس، الرّطب) :

يأتي المصطلح في النّصّ في صيغة الصفة المشبهة إمّا للتعبير عن صفة طبيعية في جنس من الأغذية، "الأغذية اللطيفة" مثلا، "والشراب اللطيف ينقي العروق من الكيموس الغليظ" ([5]) ؛ وإمّا للتعبير عمّا وقع عليه حدث (التلطيف) : "يتولّد منها دم لطيف" ([6]). فالأولى صفة قارة دائمة، من مادة لطُف: أي اتّصف بالرقة؛ والثانية صفة مكتسبة مؤقتة لما آل إليه الدم بعد استخدام "الملطّف"، من مادة لطّفه فصار لطيفا. والمفهومان مختلفان لمصطلحين يعدّان من المشترك اللفظي ؛

3 – الفعل (يلطّف، غلُظ، يبرّد، يبّس+مرادفين: تحمي، تسخّن) :

ظهر في النّصّ الفعل المشتقّ من المصطلح ليزيد دلالة المصطلح وضوحا، فمثلا : الفعل "لطّف" ظهر في التعريف في أربع مناسبات : فاقترن في الأولى والثالثة والرابعة بالأفعال التالية : تحلو وتذهب بالسّدد، ويفتح سدد الكبد ؛ واقترن في الثانية بعبارة

---

(5) نفسه، ص 120.
(6) نفسه، ص 112.

الكيموس الغليظ، وهو دليل على ما في مصطلح (ملطّف) من معان قد لا تكشفها صيغة المصطلح ويظهرها الفعل بسياقاته المختلفة، إلى جانب استعمال الرازي أحيانًا لأفعال مرادفة ساعدت على مزيد بلورة المفهوم المنشود للمصطلح.

4 – المصدر : (التلطيف، التغلّظ، التبريد) :

إنّ ورود المصطلح في شكل مصدر دليل على استقرار المفهوم وتداوله. فإنّ التلطيف أو التغلّظ أو التبريد نتيجة حاصلة بفعل نجاح "الملطّف" في القيام بوظيفته. ولهذا تحوّلت الوظيفة المفترضة إلى حدث ناجز.

5 – صفة التفضيل (ألطف، أغلظ، أرطب) :

تفيد صيغة التّفضيل أنّ المفاهيم التي تدلّ عليها المصطلحات لا يمكن أنْ تكون على درجة واحدة من القوّة، فهناك مثلاً : اللّطيفة والألطف، شأنه شأن أيّ دواء إنّما هو خاضع في تأثيره لطبيعة المستعمل وكيفية الاستعمال ..إلخ. كما لاحظنا استعمال الرازي لوسائل تفضيل أخرى باعتماد "أشدّ" أو "أكثر" مع المصدر عندما لا يسمح المصطلح باشتقاق صفة تفضيل منه : "سويق الشعير أكثر تبريدا" ؛ "لحم الجزور شديد الحرارة يتولّد منه دم غليظ" (7).

6 – صفة الفاعل (ملطّف، مبرّد) :

اسم الفاعل يدلّ على اكتساب هذا النوع من الأغذية قوة فاعليته. والمصطلحان المعنيان مشتقّان من فعلي "لطّف" و"برّد" وصيغتهما دالة على وقوع حدث، ومن ثمّ تعديته إلى المفعول الذي وقع عليه.

7 – صفة المفعول (المبرَّد) :

تبدو أهمّيّة هذه الصّيغة في تأكيدها تداخل الدّلالة العامّة بالدّلالة الاصطلاحيّة، حتى أنه لا فرق بينهما في هذا الاستعمال.

---

(7) نفسه، ص 134.

وبصفة عامّة نحن نعرف أنّ المصطلحات تتكوّن من مقولتي الاسم والصفة، لكن هل يوحي تنوّع بنية المصطلح الصرّفية وعدم تجمّدها في صيغة المصطلح الأصليّة (مصدر، اسم، صفات الفاعل والمفعول والمشبهة والتّفضيل إلى جانب الفعل) إلى إمكان تناوب هذه الصيغ في بلورة المفهوم الواحد، وفق سياقات متنوعة ؟ وهل إنّ حيويّة البنية ويسر اندراجها في الخطاب هما اللذان قرّبا نصّ الرازي من اللغة العامة حتى أن القارئ لا يكاد يشعر بخصوصيّة الدّلالات الدّقيقة وربما المعقّدة التي يكرّسها النصّ العلميّ ؟ إن صحّ ذلك فهو يُحتسب للرّازي باعتبار أنّه وفّق إلى هذا التبْسيط واليسر في توظيف المصطلح في مجال علميّ صارم، من المفروض أنْ تكون أدواته شديدة العسر على غير المختصّين، ومصطلحاته شديدة الانغلاق بنية ودلالة.

وشبيه باعتماد مشتقّات المصطلح في النّصّ العلميّ دخوله في علاقات ائتلافية أو اختلافيّة مع مقابله أو مرادفه لتيسير شرحه توسّلا بألفاظ اللُّغة العامّة، على أنّ بعض هذه الألفاظ قد نجد له امتدادًا في النصّ العلميّ ليتحوّل هو نفسه إلى مصطلح مَدْخَل، ولكنّ أغلبها تظلّ بمدلولاتها العامّة التي تُفقد المصطلح جانبًا من صرامته العلميّة.

وفي ما يلي بعض الصيغ الصرفية التي ظهرت لهذه المصطلحات ودرجة تواترها :

المصطلح	اسم	ص.مشبهة	فعل	مصدر	ص.تفضيل	ص.فاعل	ص.مفعول	الجملة
ملطف	+	+	+	+	+	+	–	6
غليظ	+	+	+	+	+	–	–	5
بارد	+	+	+	+	–	+	+	6
حارّ	+	+	+	+	+	–	–	5
يابس	+	+	+	–	–	–	–	3
رطب	+	+	–	–	+	–	–	3
المجموع	6	6	5	4	4	2	1	

2 – 3 . المُصْطَلَحُ والدّلاَلَةُ :

2 – 3 – 1 . الدّلاَلَةُ المُعْجَمِيَّة (8):

نُلاحظ أنّ المصطلحات السّتة صفات مفردة (صفة الفاعل : الملطّف، وخمس صفات مشبهة : الغليظ، والبارد، والحارّ، واليابس، والرطب)، ولكنّها قد تستعمل في النّصّ العلميّ مركّبةً، فيزاد إليها الاسم (الغذاء أو الأغذية أو الأطعمة أو الأدوية) فيقال مثلاً : "الغذاء الملطّف"، أو "الأغذية الغليظة". أمّا دلالاتها العامّة فتُشير إلى وضوح تصنيفيّ عند الرّازي اعتمد فيه على طبائع الأشياء في إسناد المفهوم ووضع المصطلح. فجعل حركة المصطلح الدّاخليّة قائمة على نسق وتقابل وتراتب، فهناك : الثّنائيّة والضديّة والتّسلسل : (الملطّف/الغليظ، والبارد/الحارّ، واليابس/الرّطب)، فإنّ عناصر الطبيعة التي استمدّت منها هذه المصطلحات هي نفسها قائمة على ثنائيّة : القوّة (الملطّف أو اللّطيف، والبارد، والرّطب) والضّعف (الغليظ، الحارّ، واليابس). بذلك يكاد يكون الاصطلاح وتصنيفه مستمدًّا من تصنيف طبائع الأشياء، وهو ما ييسّر حصر المفاهيم ويسهّل إدراكها وضبطها.

ويكشف تحوّل المفردة من التعميم إلى التّخصيص ، بفضل المجاز وما يواكب ذلك في الاستعمال من حيويّة دلاليّة وشكليّة، عن نشاط لغويّ يفتح أمام المفردة آفاقا معنويّة تكسبها القدرة على الدّخول في علاقات دلاليّة وفق الحقول المفهوميّة التي توظّف ضمنها، وهذه العمليّة تقوم أساسًا على مبدإ التّجريد الذي يحرّر المفردة من مجالها الدّلاليّ المتّفق عليه ويدخلها في مجال اصطلاحيّ وفق علاقة مجازيّة ما. فكيف يظهر المصطلح في نصّ الرّازي ؟

2 – 3 – 2 . الدّلاَلَةُ الاصْطِلاَحِيَّة :

لوحدة المصطلحيّة علامة، وهي وحدة مفهوميّة في جدول مصطلحيّ، وهي وظيفة تصنيفية دالّة على موقع المرجع في نظام استعماله وميدان استغلاله (الحقل المعرفي). ولن يتأتّى لنا إدراكُ ذلك إذا عالجناها منعزلة عن النّصّ، فإنّ وظيفة التّركيب النّسقيّ المؤسِّس

---

(8) عن قاموسي : لسان العرب والمعجم الوسيط.

للوحدة المصطلحيّة هو بالأساس : الضبط الدّلاليّ، أيْ الدّقّة في تحديد المضمون المفهوميّ لنجاح الوظيفة المرجعيّة. فإنّ التّحديد الدّلاليّ في مستوى التّركيب المصطلحيّ يستند إلى ضبط المفهوم وعزله عن مفاهيم مجاورة عاملة في حقول معرفية أخرى، وحصره بالنّسبة إلى المدلول المعجميّ العامّ المؤسّس لوجود العلامة اللّغوية. فإنّ مرور المفردات من العموميّة المعجميّة إلى الخصوصيّة المصطلحيّة تحصر الحقل الدّلالي للمفردة في مدلول خاص يؤهّلها للقيام بوظيفة اصطلاحية، أي يؤسّس علاقته الخاصة بالمفهوم العلمي لتتحول المفردة إلى دالّ لمدلول اصطلاحي جديد كعلامة على مفهوم لا تقبل الاشتراك أو الغموض. فهل يصحّ ذلك على هذه المصطلحات ؟

أ – الملطّف :

إنّ دلالة مصطلح "الملطّف" بمختلف صيغه الواردة في النصّ لا تحيل إلى معناه العام الحقيقي، وهو في الغالب المعنى الحسيّ (أي الذي يحوّل الخشونة إلى نعومة)، بل دلّت على معان مجرّدة محوّلة مجازًا من الحسيّ إلى المجرّد. ويبدو أنّ الصيغةَ الصرفيّة لمصطلح "الملطّف" وهي من فعل "لطّف" تحمل دلالة التأثير إمّا في الجهاز الهضميّ إذا تشنّج، وإمّا في الغذاء إذا كان عسيرا : "ومن الأغذية الملطّفة جنس آخر يلطّف ما بقي من الشيء الغليظ بما فيه من الحدّة والحرافة" (9)، لتصبح بذلك دلالة "الملطّف" : علاج الآثار السلبيّة للغذاء الغليظ في البدن.

ب – الغليظ :

يؤدّي مصطلح "الغليظ" في هذا النصّ دلالات مختلفة وإنْ تقاربت صلاتها، ولكنّها جميعا مباينة للدّلالة المعجميّة العامّة من ناحية التّحريد. فلعلّ من أبرز خاصيات "الغليظ" جانبه الحسيّ، (باعتبار "الغلظ" أساسا صفة ماديّة لما هو قويّ خشن شديد). وهذا دليلٌ على أنّ النّقل المجازي انبنى على التحريد، فأُطلقت صفة (غليظ) تارةً على الغذاء الدّسم المغذّي : "والأطعمة الغليظة إذا صادفت بدنا حارا .. انهضمت وغذّت البدن غذاء كثيرا

(9) نفسه، ص 112.

باقيا وقوّته بقوّة كثيرة" [10]، وتارة على اللاذع الحادّ : "ما بقي من الشيء الغليظ بما فيه من الحدّة والحِرافَة [11]، وتارةً أخرى على الكثيف ذي الجرْم الرّديء : "وبقي جرمه غليظا رديئا " [12]، وطورا على الأطعمة القوية الشديدة : "ولبن البقر أغلظها وأوفقها لمن يريد أنْ يخصب بدنه، ولبن الأتُنِ أرقّها وإيّاه يُسْقَى في عِلَلِ الرئة" [13] ...إلخ.

ج – البارد :

ظهر مصطلح "البارد" في النّصّ العلمي بدلالات اصطلاحية يمكن تصنيفها كما يلي :

- الخفيف المكوّنات : "الشعير قريب من الاعتدال إلى البرد. وهو قليل الإغذاء" [14].
- المخفّض لحرارة البدن : "العدس بارد يابس .. يطفئ ويبرّد".
- البطيء : " الشعير (...) منفخ مبرّد ضارّ لمن يشكو الرياح والأمراض الباردة والقولنج، صالح لمن هو محرور" [15].
- مسكّن للحرارة : "الخسّ بارد مسكّن للهيب المعدة الحارّة" [16].

د – الحارّ :

وجاء مصطلح "الحار" في النّصّ العلمي بالدلالات الاصطلاحية التالية :

- المسخّن : "الأغذية الحارّة يَحتاج إليها من كان عليه البرد في الأوقات الباردة" [17].
- المنشّط : "والشراب يسخّن المعدة والكبد ويزيد في الدّم واللحم والحرارة الغريزية، فيجوّد لذلك الهضم كلّه " [18].
- الحادّ المذاق : [ومن الأغذية الملطفة] "حارّ حرّيف مقطع كالخردل والحرّف والثوم والكراث " [19].

---

(10) نفسه، ص 113.
(11) نفسه، ص 113.
(12) نفسه، ص 113.
(13) نفسه، ص 141.
(14) نفسه، ص 122.
(15) نفسه، ص 122.
(16) نفسه، ص 145.
(17) نفسه، ص 116.
(18) نفسه، ص 130.
(19) نفسه، ص 113.

هـ – اليابس :

أمّا مصطلح "اليابس" فقد ورد في النّصّ العلمي بالدّلالات الاصطلاحيّة التّالية :

– مقاومٌ للرطوبة : "والأغذية اليابسة : يحتاج إليها من كان الغالب على بدنه الرطوبة" ([20]).

– مصلّب عاصم : "البلوط بارد يابس عاقل للبطن ممسك للبول" ([21]).

– مضادّ للجفاف : "الحليب نافع ... يغذّو الأبدان اليابسة أفضل إغذاء، ويميل بها إلى الاعتدال" ([22]).

و – الرّطب :

وظهرَ مصطلح "الرّطب" في النّصّ العلميّ بدلالات اصطلاحيّة هي كما يلي :

– النّديّ : "الأغذية اليابسة يحتاج إليها من كان الغالب على بدنه الرطوبة، وفي الأوقات الرطبة والبلدان الرطبة" ([23]).

– الغضّ الطريّ : "الباقلّى قريب من الاعتدال إلا أنّه مائل إلى البرد، والرطب منه يولد أخلاطا نيّة" ([24]).

– اللّين الناعم : "كلما كان الحيوان أطرى فلحمه أرطب وهو خير" ([25]).

2 – 4 . التّعْرِيفُ :

ليس المقصود بالتّعريف الركن الثاني من أركان الوضع في المعجم، فليس كتاب المنصوري في الطبّ للرازي معجمًا، لكنّ مسألة تعريف المصطلحات ضمن سياقها النصّي جعلت الكتاب في أبواب منه، ومنها المقالة الثالثة، ينحو منحى معجميًّا فيتحوّل التأليف إلى مداخل، وإن خلت من الترتيب، مشفوعة بنصوص اشتملت على عناصر من التعريف تمثّل في الحقيقة لبّ المسألة المصطلحية في الكتاب لأنّ هذه التعريفات مثّلت التناول العمليّ لحياة المصطلح في النّص، ففيها يتجسّد سلوك المصطلح في النّصّ من ناحية تولّده الاشتقاقي

---

(20) نفسه، ص 116.
(21) نفسه، ص 154.
(22) نفسه، ص 141.
(23) نفسه، ص 116.
(24) نفسه، ص 123.
(25) نفسه، ص 133.

ودخوله في علاقات تقابليّة أو اتّحاديّة مع مصطلحات أخرى، وما يتْبع كلّ ذلك من مظاهر دلاليّة وأبعاد مفهوميّة مرجعيّة تصل المصطلح، من ناحية، بالمجال العلميّ الذي استعمل فيه ومن ناحية ثانية، بحقله الدلالي العام. وهذه المراوحة ليست في الحقيقة ناتجة عن قراءة خارجية بقدر ما هي منصهرة في طبيعة خطاب الرازي.

فإنّ التعريفَ هنا لم يقم في الحقيقة على خصائص التعريف المعجميّ اللغويّ العام القائم على العلاقة بين المصطلح المعرّف باعتباره وحدة مصطلحيّة وتعريفه في القاموس، بل هو قائم على ضرب من الخطاب التحليلي يَرِدُ فيه التّعريف في إطار جدولة مصطلحيّة خاصّة بالمجال العلميّ المدروس.

ولهذا نجد الرازي يقتصر على عدد محدود وضروريّ من أركان التعريف، فاستغنى عن التدقيقات اللّغوية المتعلقة بالموجود المعرّف، وقد يكون ذلك لاعتقاده أن المعاني المقصودة بديهية وأنها مستقرة في الاستعمال العلميّ (كالأصل الاشتقاقي، والدّلالة الحقيقيّة)، وعن ذكر مكان وجوده (إنْ كان نباتًا أو حيوانا أو معدنا) وذكر زمانه، ومصادر المعلومات التي استقاها عنه ؛ بل إنّ الرازي لا يركّز إلا على ماهية الشيء المعرّف وخصائصه وظروف استعماله ونوع المستفيد منه وما يميّزه عن غيره ؛ ثم هو يُلْحق بذلك التمثيل له بنوعين من النماذج : الأول : إيجابيّ يمثّل فوائد استعماله، والثاني : سلبيّ يمثل مضارّ استعماله، فيحذّر منه. وذلك كله يسمح بتحويل التّعريف إلى بناء دلاليّ للمفهوم المخصَّص للمصطلح، يبيّن خصائص المرجع ويحدّد موقع المصطلح في النّظام المصطلحي. فليس التعريف حَوْصلة تطول أو تقصر للمضمون المدلولي فحسب، بقدر ما هو بناء مركّب من معلومة وتحليل خاضع لنوع من الترتيب التّدريجي للسّمات التي تمكّن من تحديد المصطلح في إطار مجموعة من العلامات ومبدإ حصر العناصر السياقية المكوّنة لمرجعه. ويتأسس التعريف على مجمل هذه العناصر. وهي في مستوى البنية القاموسية تؤسّس علاقة بين المصطلح باعتباره علامة لغوية (ذات مرادفات، ومقابلات، واشتقاقات يستدعي النّص ظهورها)، وعدد من العناصر

الخارجية الضرورية لتحديد وجوده (مجال استعماله، كيفية استعماله، آثار استعماله، صلته بمصطلحات مجاورة، ترجمته، توثيقه...).

فالتعريف حينئذ شكل من الأشكال الأساسية في إعادة صياغة المصطلح وإدراجه في الخطاب. إذ لا يمثّل التعريف غاية لذاته كما هو في القاموس، بل هو وجه من وجوه الإمساك بالمصطلح قصد توظيفه توظيفا أمثل في الخطاب ثم في العلم ذاته.

وسنحاول في هذا العمل تتبّع المصطلحات التي حدّدنا، وكيفيّة تمظهرها الشكلي والدّلالي في النصّ العلمي المدروس، لنتعرّف على سلوكها في النّص ومدى انزياحها عن دلالتها الحقيقيّة إلى دلالات اصطلاحيّة حادثة فيها بسبب تغيّر انتمائها من ألفاظ عامة إلى مصطلحات :

2 - 4 - 1 . بنية التّعريف :

ورد مصطلح "الملطّف" أو مشتقاته أو مرادفاته ومقابلاته : اثنتين وعشرين مرّة، منها اثنتا عشرة "للملطف" ومشتقاته، وسبع لمقابلاته، وثلاث للتوضيح، وواحدة للمرادف.

أمّا مصطلح "غليظ" : فقد عُرّف بذاته في خمس حالات ؛ وبمشتقاته (غلظ..) في مناسبتين ؛ وبمرادفه (لزج..) ستّ مرات ؛ وبمقابله (لطيف..) أربع مرات ؛ وبخواصه (عسر الهضم والانحباس) في البدن في مناسبتين .. فيكون المجموع تسعة عسر استعمالاً سبعة منها فقط لأصل المصطلح وما اشتق منه، والباقي وهو اثنا عشر استعمالا مكمّلا لوظيفة التعريف.

واشتمل تعريف مصطلح "البارد" على عشرين استعمالاً للمصطلح منها أربعة في تعريف المصطلح بذاته (بارد)، وخمسة بمقابله (حارّ)، وعشرة بخواصه (حامض، عفص..).

وضمّ تعريف مصطلح "الحارّ" عشرة استعمالات منها اثنان للمصطلح نفسه وواحد لمشتقاته وثلاثة لمقابلاته وأربعة لخواصه التّوضيحيّة.

وضمّ تعريف مصطلح "اليابس" ثمانية استعمالات، منها واحد فقط للمصطلح المدروس، وأربعة لمقابلاته وثلاثة لخواصه التّوضيحيّة.

واشتمل تعريف مصطلح "الرّطب" على تسعة استعمالات، منها أربعة للمصطلح المدروس، واثنان لمقابلاته وثلاثة لخواصه التّوضيحيّة.

وكلّ هذا دليلٌ على أنّ إدراكَ مفهوم المصطلح ليس بديهيًّا وأنّ تعريفه يمرّ بعمليّات لغويّة شديدة التّعقيد يستدعي فيها العالِم مقدِرات اللُّغة العامّة لتيسير مفهوم المصطلح وتقريب مرجعه من الأذهان، قصد حصر حدوده ومنع الالتباس عنه. ولذلك فالرازي عرّف المصطلح بذاته : (ملطّف)، وبتصرّفه (لطيف/يلطف..)، وبمقابله (غليظ)، وبمرادفه (أرقّ)، وبخواصه (قويّ، متوسط) ، إلخ.

وتبدو جميعُ هذه المظاهر دليلاً كذلك على ديناميكيّة المصطلح وقدرته على التّفاعل داخل النّصّ بما يبدّد تلك الصورة القارّة لنا عنه وهو أنّه ذو مفهوم ثابت شديد الاستقرار جامع مانع. وهذه واحدة من خصائص معالجة المصطلح داخل النصّ. وما ظهور هذا العدد الكبير من الألفاظ المتّصلة بالمصطلح في تعريفه إلا دليل على مصاعب ضبط المفهوم وتحديد مراجعه بالدقة التي يقتضيها العلم.

لكن إذا كان استخدام المقابل والمرادف والخواص التوضيحية مفهوما في نص تعريفيّ، فإنّ التساؤل يبقى قائما حول كثرة المشتقات حتى لكَأنّ النّص أحيانا يغرق في التكرار، فلو أردنا أن نحمل التّعريف لقلنا : (الملطف هو نوع من الغذاء يصنّف حسب قوته إلى لطيف ومتوسط وغليظ، يهمّنا منها الغذاء اللّطيف لأنّ وظيفته تتمثّل في أنّه يلطّف الشيء الغليظ ليردّه ألطف أو أرقّ) وهنا نعود إلى الدّلالة المعجميّة الأصليّة وهي الرّقة.

إنّ هذا الدّوران في نفس الحلقة الاشتقاقيّة لم يُيَسِّر في الحقيقة عمليّة الفهم بقدر ما يسّرها المصطلح المقابل (غليظ). ولهذا لاحظنا لدى الرازي تغليبا لتكرار المصطلح المقابل (سبع مرات) حتى كاد يضاهي درجة تكرار المصطلح المعرف نفسه (أربع مرات، تضاف إليها ثمانية مشتقات ومرادف واحد). وهو ما فسّر وظيفة "الملطّف" وزادها إيضاحا، إضافة إلى وحدات ذات وظيفة تفسيرية مثل : (قوى، متوسطة) وهي للدلالة على درجة مفعول الغذاء المدروس.

وعلى هذا المنوال من استخدام الترادف والتقابل والتعاضد يمضي الرازي في تعريف بقيّة مصطلحاته.

وتبدو جميع هذه المظاهر دليلا كذلك على أنّ للمصطلح قيمة لا تبدو إلا من خلال تفاعله داخل النّصّ، وهي عملية إعادة صوغه والتصرّف فيه من التّعميم إلى التخصيص، والمراوحة في كلّ ذلك من المصطلح إلى التعريف ومن التعريف إلى المصطلح. وما ينتج عن ذلك من بدائل قائمة على استعادة التعريف بطرق مختلفة، إضافة إلى ما يصحب المصطلح في كلّ مرة من تعابير توضيحيّة، لمزيد التحكم في المفهوم وتمييزه عمّا يجاوره من مفاهيم قد تلتبس به.

والطريف هو استخدام الرازي نفس المنهج مع كلّ مصطلح من المصطلحات التي عالجناها. وهو ما يؤكّد منهجه التصنيفي المبني على فكرة الثنائيات الطبيعية وما يتولّد عنها في مستوى الأغذية من قوى تراتبيّة تنتظم طبيعة الأشياء نفسها كالبارد والحارّ واليابس والطري، إلخ .

وهكذا فالتعريف يمكن أنْ يقوم على عدّة أركان نظريّة وتجريبيّة. وقد اعتمد الرازي تقريبًا نفس المقاييس في جميع التّعريفات وهي :

- أساس لغوي : باعتماد مشتق من نفس الجذر، أو المقابل، أو المرادف.
- خصائص الغذاء ومنافعه ومخاطره.
- التّمثيل له ، بذكر : قوائم من أسماء الأغذية، أو تجارب معيّنة، أو شروط الاستعمال.

ومع ذلك يظلّ كلّ تعريف من هذه التعريفات في حاجة إلى مزيد توضيح وهو ما سينجزه الرازي في المرحلة التي سمّيناها التحليل.

2 – 5 . المصطلح والتّحليل :

إنّ الخصائص المرجعيّة للمصطلح تعطيه موقعا خاصا في النّظام المعجميّ، إذ لا يكون تحديده كافيا إلا إذا اقترن تعريفه وتحديد مضمونه بواقع مادي معيّن. فلا يمكن مثلا تحديد المضمون المصطلحي إلا داخل بنية السياق : فتحلّل عناصره الأساسية المكونة له،

وينظر في علاقته بمصطلحات مقابلة أو مرادفة، وفي كيفية استعماله في النّصّ، وفي بنيته الاشتقاقية، وبنيته المفهومية.

فما سميناه تفسيرا هو ما جاء في شكل إضافات لجوانب مكمّلة للتعريف ممّا لا تسمح بنية التعريف بظهوره بسبب نزعتها الشمولية والتجريدية. فالرازي احتاج في مناسبات كثيرة لمزيد توضيح مفهوم المصطلح بتبرير خصائصه العلاجية أو بتنبيه إلى آثاره الأخرى، أو باللجوء إلى ذكر أمثلة عنه، أو بتقريب مدلوله بالمقابل أو بالمرادف، أو بتوليد مشتقات منه.

وفيما يلي محاولة لتتبّع ذلك في مستوى النّصّ .

2 – 5 – 1 . الخصائص :

أ – المنافع : لا تخلو أغلب الأغذية من فوائد، ولكن سبل الانتفاع بها ومعرفة طرق استعمالها والأسباب الحاملة عليها هي ما سيعمل الرازي على إظهاره في ما سمّيناه "منافع الغذاء". وقد تكون هذه الفقرة مطولة، وقد لا تجاوز الجملة في مواطن أخرى :

– الملطف : "لأنّ الدم المتولّد منها إذا خالط الدم الذي في البدن صار الكلّ أرقّ وألطف ممّا كان" ([26]). فمن خصائص هذا الملطّف أنّه يولد دما رقيقا لطيفا ؛ ويمكن تبيّن ذلك من جهة معرفة مفعول الغذاء الملطف، فهو: يرقّق الدم: أي يصيّره مائيًّا. بمعنى غلبة الخفّة على الكثافة، حتى يصير ضعيف التغذية، فلا يؤدّي إلى فاضل أو خام وسدد.

– الغليظ : "وهو في نفسه غليظ مولد للكيموس الغليظ" ([27]). ومن خصائص هذا الملطّف أنّه غليظ مولّد لكيموس غليظ يلطّف ما بقي من الشيء الغليظ في المعدة.

– البارد : "فما كان منها عفصا فهو بارد غليظ، وما كان حامضا فهو بارد لطيف" ([28]).

---

(26) نفسه، ص 111.
(27) نفسه، ص 112.
(28) نفسه، ص 116.

- الحارّ : "وكلّ شراب مسكر فإنّه يسخّن البدن؛ وأقلّه إسْخَانا هو الأبيض. والشراب يسخّن المعدة والكبد ويزيد في الدم واللحم والحرارة الغريزية، فيجوّد لذلك الهضم كلّه" (29).

- اليابس : "وكلّ ما يشوى وكلّ ما يطجّن وكلّ ما يقلى" (30).

- الرطب : "وكلّ ما يطبخ بالماء ويسلق ويقلل فيه من الأبْزار والخلّ والمري والسذاب ولحوم الصغار من كلّ الحيوان" (31).

ب – التنبيهات : يقدّم الرازي ملاحظات غالبا ما تعقب مرحلة الفوائد، ينبّه فيها إلى مخاطر المبالغة في استعمال أغذية بعينها، فقد تتحوّل فائدتها إلى مَضرّة. وقد يعدّدها : كيموس غليظ، سدد في الطحال أو في الكلى، صعوبة هضم ؛ كما يمكن أنْ تكون هذه التنبيهات مجرّد تعريف بقيمة الغذاء وأحسن السبل في الاستفادة منه :

- الملطّف : "وهذا جنس من الطعام نافع لمن ليست له حركة، وكانت الحرارة الغريزية في بدنه ضعيفة ولم يأمن أن يتولد في بدنه كيموس غليظ أو يتولد في كبده أو طحاله سدد أو في كلاه أو دماغه أو يكون في بعض مفاصله علة من البلغم" (32).

- الغليظ : وأجود ما تستعمل هذه الأغذية في الشتاء لاجتماع الحرارة في باطن البدن وطول النوم. ومتى أُحسّ أحد في بدنه نقصا بيّنا، أو أكلها أحد كانت الحرارة في بدنه قليلة وخاصة في المعدة" (33).

- البارد : "وما كان من الشّراب أبرد عفصا فهو أقلّ الأشربة حرارة، فإن كان ذلك غليظا حديثا فهو بارد" (34).

- الحارّ : "والشراب يسخّن المعدة والكبد ويزيد في الدّم واللّحم والحرارة الغريزية" (35).

---

(29) نفسه، ص 130.
(30) نفسه، ص 116.
(31) نفسه، ص 117.
(32) نفسه، ص 111.
(33) نفسه، ص 113.
(34) نفسه، ص 116.
(35) نفسه، ص 130.

- اليابس : "وإن كان يابس القوام جفّف" ([36]).

- الرّطب : "كلّما كان الحيوان أطرى فلحمه أرطب وهو خير، وكلما كان أسنّ فلحمه أيبس وهو شرّ" ([37]).

2 - 5 - 2 . التمثيل : ليس التمثيل هنا مجرّد تقريب فكرة ولكنّه من صلب رسالة العلم. فالحقيقة أنّ التمثيل هنا نقصد به نماذج من الأغذية أو الأدوية التي تتناسب مع طبيعة الحالة التي يتناولها الرازي بالدرس. وقد يخضع لاختلافات حسب الممثّل له، فأحيانا يكون في شكل مسرد وأحيانا يتطلّب العنصر الممثّل به تدقيقا (شروط الاستعمال، والظرف، وطبيعة المستعمل..) :

- الملطّف : "كلُبَابِ جسم الحِنْطة المغسول غسلا، ولحم الفراريج والدراج، والحجل، وأجنحة الطيور، وما لان لحمه من صغار السمك و لم يكن فيه لزوجة، والقرع وما أشبه ذلك" ([38]).

- الغليظ : "وأما لحوم الخرفان والضان فكلها رطب لزج، ولحم فراخ الحمام والعصافير يولد دما أسخن وأغلظ من الدم المعتدل" ([39]).

- البارد : "..وهي الشعير والقرع والبطيخ والإجّاص.. والخيار وما إلى الحموضة والعُفوصة من العنب والزبيب.. وأما الخلّ فهو بارد لطيف ضارّ للعصب " ([40]).

- الحارّ : "لحم الجزور شديد الحرارة يتولّد منه دم غليظ" ([41]). "الكبد حارّ كثير الإغذاء وثقيل بطيء الهضم" ([42]).

- اليابس : "..وهي كالعدس والكرنب والسويق الجاف، وكلّ ما يشوى وكلّ ما يطجّن، وكل ما يقلى.. والخلّ والخردل والمريّ واللحوم المسنة من جميع الحيوان.." ([43]).

---

(36) نفسه، ص 111.
(37) نفسه، ص 113.
(38) نفسه، ص 114.
(39) نفسه، ص 114.
(40) نفسه، ص 116.
(41) نفسه، ص 134.
(42) نفسه، ص 136.
(43) نفسه، ص 113.

– الرّطب : "ومنها ماء الشعير والقرع والقثاء والبطيخ والخيار والبقلة واليمانية والباقليّ الرطب والحمص الرطب واللوبيا الرطب" (44).

2 – 5 – 3. المقابل /المرادف : كثيرا ما يحتاج الرازي لتوضيحه مفعول الغذاء وخصائصه أو لبيان تأثيره إلى استحضار مقابله أو مرادفه سواء في الخصائص أو في المفعول:

– الملطّف : "أجود الأغذية له المتوسطة فيما بين اللطافة والغلظ، لأنّها لا تنهك البدن وتضعفه كالأغذية اللطيفة ولا تولد خاما ولا سددا غليظة" (45). في هذا النصّ اقترن "التلطيف" بالرقة والخفة، وقابل في نفس الوقت مصطلح "الغليظ" المؤدّي إلى "الخام" و"السّدد".

– الغليظ : "الترمس : غليظ عسر الهضم، وإذا طُيّب ثم أُكل لم يُسخن" (46).

– البارد : "الأغذية الباردة يحتاج إليها من كان حارّ البدن وفي الأوقات والبلدان الحارة" (47).

– الحارّ : "وكلّ شراب مسكر فإنّه يسخّن البدن، وأقلّه إسخانا هو الأبيض" (48).

– اليابس : "والأغذية اليابسة : يحتاج إليها من كان الغالب على بدنه الرطوبة" (49).

– الرطب : "كلما كان الحيوان أطرى فلحمه أرطب وهو خير، وكلما كان أسنّ فلحمه أيبس وهو شرّ" (50).

لكنّ هذه المصطلحات التي تقدّم اقتضى ظهورها في النصّ ظهور مشتقات من جذوعها يلتبس بعضها مع وظائفها الاصطلاحية حتى لتبدو كأنّها مرادفات لها. وهذه المشتقات هي: أفعال وصفات وأسماء. وردت في الغالب في نطاق تعريف المصطلح وتحليله داخل النص العلمي (مثلا: لطّف، اللطيف، ألطف، واللطافة، والتلطيف) ووجودها وجود

---

(44) نفسه، ص 117.
(45) نفسه، ص 114.
(46) نفسه، ص 124.
(47) نفسه، ص 116.
(48) نفسه، ص 130.
(49) نفسه، ص 116.
(50) نفسه، ص 133.

مساعد لأنّها تزيد في تعريف المصطلح وتفسيره من ناحية وتكسبه خاصية المفردات العامة في تصرّفها داخل الاستعمال.

3 – الخاتمـــة :

لا شكّ أنّ المصطلح وحدة لغوية ذات أبعاد .

– لغوية تمكّن من تحديد دلالتها العامة وخصائصها باعتبارها منتمية إلى إحدى المقولتين اللتين ينتمي إليهما المصطلح وهما مقولتا الاسم والصفة ؛

– مرجعيّة تحدّد مفهومها ومجال استعمالها العلمي ؛

– ومنطقيّة تدلّ على مقدرة الإنسان على التجريد للسيطرة على واقعه بفضل تصنيف فكري لعالم الأشياء يسمح بإيجاد صلة بين مفهوم الوحدة المصطلحية ومرجعها من عالم الأشياء.

وللمصطلح وظيفة أساسية في بناء المعرفة والتحكم في أنظمة المفاهيم وتسهيل استغلالها والتحكم العملي فيها. غير أنّ إشكاليّة المصطلح تظلّ في صعوبة تخلّصه من دلالته العامة وتأرجحه بين الدلالة الأصلية والمفهوم الاصطلاحي ممّا يحدّ من وظيفته إلى جانب ما تطرحه الوظيفة المرجعية من غموض أو اشتراك بين الحقول المعرفية لصعوبة تحديد المفاهيم من مجال دلالي إلى آخر. ويرجع ذلك في الغالب إلى تطور العلوم وما ينجرّ عنه من وجوب تطوير بنية المفاهيم ومراجعة تعريفاتها تبعا لتغيّر نظام المصطلحات.

من هنا كان اهتمام اللّسانيين بقضايا المصطلح وإدراجه ضمن البحث اللساني المعجمي، بعد أن ظلّ ردحا من الزمن مقطوع الصلة بجذوره اللغوية مقتصرا على اجتهادات العلماء المصطلحيين باعتبار تعارض علاقته المفهومية القائمة على مرجع خارجيّ يعبّر عنه بمصطلح داخليّ، مع علاقة الدلالة اللغوية القائمة على دال ومدلول. ولهذا يندرج عملنا ضمن تأكيد العلاقة العضوية بين المصطلحية (terminologie) باعتبارها علم المصطلح تنظيرا وتطبيقا، فهي معجمية مختصة ؛ وبين المعجمية (lexicologie)، باعتبارها علم المفردات تنظيرا وتطبيقا، فهي معجمية عامة. وكلا الفرعين يكونان حينئذ علم المعجم

([51]). فهما يشتركان في خصائص هذا العلم، من بحث في تكوّن الوحدات من حيث هي كيانات مجرّدة مفردة معقّدة لها دلالاتها أو مفاهيمها ومناهج تولّدها وتقييسها وخصائصها التمييزية. وهو ما يجعل دراسة المصطلح جزءا من الدرس اللغوي المعجمي العام، بما فيه من حركة وتطوّر هي جزء من خصائص المصطلح اللغويّة.

وليس أدلّ على ذلك من هذه المعالجة التي تجاوز النظر إلى المصطلحات باعتبارها قوائم مستقلة قارة في علم من العلوم، إلى درسها باعتبارها وحدات لغوية تندرج داخل لغة الخطاب فتتأثر بما يحيط به شكلا ومضمونا، فتتغيّر أبنيتها وتعاد صياغتها في اتّجاه التعميم أو في اتّجاه التخصيص... وجميع ذلك يطرح في مستوى السياق عدّة تساؤلات حول بنيته ودلالته تظهر من خلال سلوكه في النّص العلمي، وتتجسّد خاصة في مستوى الدلالة العامة والخاصة، وتعدّد الأبنية.

الحبيب النصراوي

المعهد العالي للغات – تونس

المراجع

ابن طالب، عثمان : "علم المصطلح بين المعجميّة وعلم الدّلالة"، ضمن : المسدي عبد السلام وآخرون : تأسيس القضية الاصطلاحية، بيت الحكمة، قرطاج – تونس، 1989، ص ص 69 – 103.

ابن مراد، إبراهيم : المعجم العلمي العربي المختصّ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993.

ـــــــ مسائل في المعجم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.

ـــــــ مقدّمة لنظريّة ا لمعجم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.

الرازي، أبو بكر : المنصوري في الطب، تحقيق : حازم البكري، الألكسو، الكويت، 1987.

(51) ينظر حول هذه المقاربة المعجميّة لعلم المصطلح بحث إبراهيم بن مراد "المصطلحيّة وعلم المعجم" في كتابه مسائل في المعجم، ص ص 30 – 44.